سقراط

سقراط الفيلسوف

رأيت في الفصل الماضي كيف كانت قيادة الفكر إلى الشعراء في العصور الاولى من حياة الامة اليونانيـة وغيرها من الامم التي تشبهها قليلا أو كثيراً . ورأيت كيف كان هؤلاء الشعراء يقودون الفكر في شعوبهم المختلفة ورأيت الطرق التي كانوا يسلكونها لتكوين الآراء والسيطرة على العقول . وأريد في هذا الفصل أن ابين لك في شيء من الايجاز الشديد الذي أنا مضطر اليه اضطراراً كيف انتقلت قيادة الفكر من الشعراء إلى طائفة أخرى هي طائفة الفلاسفة، وكيف استطاع هؤلاء الفلاسفة أن يقودوا الفكر ويدبروه، وماذا اتخذ هؤلاء الفلاسفة من طريق لقيادة الفكر وتدبيره . وفي الحق أن قيادة الفكر لم تنتقل من الشعراء الى الفلاسفة في يوم وليلة بل لم تنتقل اليهم في عام ولا أعوام بل لم تنتقل اليهم في عشرات

السنين وانما احتاجت الى القرون الطوال لتصبح ملك الفلاسفة بعد أن كانت ملك الشعراء

احتاجت الى القرون الطوال واحتاجت معها إلى أشياء كثيرة نستطيع أن نختصرها في هذه الكلمة الصغيرة التي تدل على معاني كثيرة لا تكاد تحصى وهي كلمة « التطور » . ذلك أنك تستطيع أن تشعر بهذا الفرق العظيم بين الشعر من جهة والفلسفة من جهة أخرى لتعلم أن ليس من السهل ولا من اليسير أن يخضع شعب من الشعوب لسلطان الشعر اليوم حتى اذا اصبح خضع لسلطان الفلسفة ، ليس ذلك سهلا ولا يسيراً بل ليس ذلك ممكناً إذا لم تتحقق شروط كثيرة تحتاج في تحققها الى عصور طوال

ما الشعر ؟ وعلى اي ملكة من ملكات النفس يعتمد ؟ وما الفلسفة وبأي ملكة من ملكات النفس تعتز ؟ أليس الشعر لوناً من ألوان التصور وضرباً من ضروب الحس والفهم أقل ما يمكن أن يوصف به أنهما يعتمدان على الخيال قبل كل شيء ، يعتمدان على الخيال فيدركان الحقائق لا كما هي بل كما يتصورانها ، ويحكمان على الحقائق لا كما ينبغي أن يحكما عليها بل كما يستطيعان أن يحكما عليها . أليس الشعر ولا سيما الشعر القصصي الذي كانت اليه قيادة الرأي في العصور الاولى مظهراً من مظاهر الطفولة الانسانية وصورة من صور الحياة الساذجة الغليظة ، واذا كان الامر كذلك فالفرق بين الشعر وبين الفلسفة عظيم . ذلك أن الفلسفة لا تعتمد على الخيال ولا تعتز به وانما هي مظهر الحياة العقلية القوية ؛ هي وسيلة

الانسان الى ان يتصور الحقائق كما هي ويحكم عليها الاحكام التي تلائم طبائعها أو قل انها الوسيلة الى أن يتصور الانسان الحقائق ويحكم عليها بعقله لا بخياله ولا بحسه ولا بشعوره . تعتمد الفلسفة على النقد ويعتمد الشعر على التصديق . ولاجل أن ينتقل الانسان من هذه الحياة التي يبهره فيها كل شيء ويستأثر به فيها كل شيء إلى حياة أخرى لا يخضع فيها لتأثير الاشياء وانما يحاول أو يعتقد أنه يحاول أن يخضع الاشياء لتأثيره وسلطانه ، اقول لاجل ان ينتقل الانسان من تلك الحياة إلى هذه الحياة لا بد له من عصور طوال تنمو فيها ملكاته وتستحيل

تصور هذه الشعوب الاولى التي كانت ترهب كل شيء وتتأثر بكل شيء وترى في كل شيء إلهاً تخافه وتتملقه وتترضاه ، ترى في الهواء الهاً وفي الماء الهاً وفي الارض الهاً ! ماذا اقول ؟ بل ترى في الاحجار والحشرات والاشجار والانهار والوان النبات آلهة تقدم اليها الصلوات وضروب القربان وتنظم حياتها على اكبار هذه الاشياء واجلالها وتتخذ من هذا الاكبار والاجلال قواعدها الخلقية والسياسية والاجتماعية ، ثم تصور هذه الشعوب وقد تغيرت واستحالت فهي لا ترهب الاشياء ولا تخافها بل تحاول اخضاعها وتذليلها واستخدامها فهي لا ترى في الهواء الهاً وانما هي تحاول ان تفهم الهواء وان تستخدمه في حاجاتها ومنافعها ، وهي لا ترى في الماء الهاً وانما ترى فيه عنصراً من العناصر التي يجب ان تستخدم لحاجة الانسان ولذته ، وعلى الجملة هي لا تعبد الاشياء وانما تستذلها وتستخدمها .

تصور هذه الشعوب في هاتين الحالين تشعر بالفرق العظيم بين هذين العصرين اللذين يسيطر الشعر في احدهما على الحياة وتسيطر الفلسفة في احدهما الآخر عليها ، ثم تشعر بهذا الزمن الطويل الذي يجب ان تقضيه الشعوب لتنتقل من احدى هاتين الحياتين الى الاخرى . ونحن اذا سألنا التاريخ عن مقدار القرون التي قضتها الامة اليونانية مثلا لتستبدل العقل بالخيال ولتبدل الفلسفة من الشعر انبأنا بأن هذه القرون ليست اقل من خمسة او ستة . فقد كان سلطان الشعر القصصي مسيطراً على الحياة اليونانية سيطرة كاملة في القرن الحادي عشر والعاشر قبل المسيح ، ثم اخذ العقل اليوناني يوجد وينمو ويسيطر قليلا قليلا على الحياة والغريب أن سيطرته الاولى على الحياة لم تأخذ مظهراً فلسفيا وانما احتفظت بالصورة الشعرية . أريد أن العقل أثر في الشعر فجعل حظه من الفهم والحكم أعظم من حظه من الخيال والحس ، وأخذنا نجد في الشعر القصصي ضروباً من الفهم أو محاولة الفهم وأنواناً من الحكم أو محاولة الحكم لم نكن نجدها فيه من قبل ، ومعنى ذلك ان العقل أخذ يختلس سبيله الى الحياة اختلاساً ويسلك اليها طرقاً خفية يسلكها شيئاً فشيئاً دون ان يشعر الناس بذلك أو يلتفتوا اليه . وأخذ الشعر كلما عظم فيه تأثير العقل يفقد جماله الاول وسذاجته الطبيعية شيئاً فشيئاً حتى استحال الى شيء لا نستطيع أن نسميه شعراً وانما نحن مضطرون الى أن نسميه نظما ، وربما كان أحسن مظهر لهذا النوع من الشعر الذي ينتصر فيه سلطان العقل على سلطان الخيال والذي هو اشبه شيء

obeikandi.com

بكتب التعليم وفصول الفلسفة وأبعد شيء عن هـذا الشعر الرائع الخلاب هذه القصائد التي تنسب الى الشاعر اليوناني « هسيودوس » ولا سيما هذه القصيدة الطويلة التي تسمى « الأعمال والأيام » والتي تجد فيها ضروباً من الأدب وألواناً من العلم مختلفة ، تجد فيها الأخلاق منظمة مرتبة يستدل الشاعر على خيرها وعلى شرها استدلالاً ليس فلسفياً كاستدلال « سقراط » ولـكنه ليس شعرياً كاستدلال شعراء « الالياذة » و « الاودسا » وإنما هو شيء بين بين له نصيب من الخيال وفيه حظ من التفكير والتأمل والتجربة ، ثم تجد فيها إلى جانب الاخلاق ضروباً من التعليم العملي يمس الزراعة وفصولهـا وحاجاتها ونظمها ثم تجد فيها ضروباً من التعليم الديني يصف الآلهة وأخلاقهم والصلة بينهم وبين الناس ، وما أعظم الفرق بين الآلهة في هذا الشعر وبينهم في الشعر القصصي القديم . وكان سلطان هذا الشعر التعليمي منبسطاً على الأمة اليونانيـة في القرن الثامن قبل المسيح وكان المنشـدون ينتقلون به في المدن والقرى ويلقونه على الجماعات كما كان المنشدون ينتقلون « بالالياذة والاودسا » من قبل

غير أنه من الحق أن نتبين بعض الأسباب التي دعت الى هذا التطور وجعلته أمراً محتوماً اذا لم نستطع أن نحصيها كلها . ولست أذكر منها الا سببين اثنين اعتقد أن لهما أعظم الأثر في هذا التطور . أحدهما سبب اقتصادي والآخر سياسي واجتماعي . فأما السبب الاقتصادي فهو هذا التغير الذي طرأ على الحياة اليونانية فأقرها في

المدن والقرى ونظم لها الحكومات وأنواع السلطان وجعلها حاضرة بعد أن كانت بادية . في هذه الحياة الحضرية تغير شعور اليونان بالأشياء وفهمهم اياها وحكمهم عليها ، وأخذوا بحكم الزراعة والتجارة والصناعة يشعرون بسلطانهم على الطبيعة وأخذوا يرهبون هذه الطبيعة أقل مما كانوا يرهبونها من قبل . كانوا في العصور الاولى يجنون ثمرات الأرض على أنها نعمة من الآلهة أما الآن فهم يكرهون هذه الأرض على ألا تعطيهم ثمراتها . أضف الى هذا انهم كانوا يجهلون الملكية ونتائجها اما اليوم فقد عرفوا الملكية وأخذت كل اسرة تحرص على حظها من الأرض ونشأت الخصومات بين الاسر واشتد تنازع المنافع فليس غريباً أن يكون لهذا كله تأثير عظيم في تكوين العقل وبسط سلطانه على الحياة . الثاني أن هذه الجماعات اليونانية التي استقرت في الأرض وتحضرت بعد بداوة وأخذت تجني ثمرات الحضارة الحلوة أخذت في الوقت نفسه تبلو ثمراتها المرة . ضاقت بها الأرض واشتدت بينها الخصومات فعرفت الحرب الداخلية والحرب الخارجية واضطرت بحكم هذين النوعين من الحرب الى ضروب من المهاجرة والضروب في الأرض فاستعمرت بلاداً بعيدة في أقطار من الأرض مختلفة في آسيا وفي ايطاليا وصقلية وفرنسا واسبانيا بل في أفريقيا أيضاً . وأنت تعلم هذه النتيجة المحتومة التي يحدثها اختلاط الشعوب المختلفة وما ينشأ بينها من حرب وجهاد ، تنبه العقل اليوناني بحكم هذه الأشياء كلها وأخذ يفهم الحياة على نحو جديد لم يكن مألوفاً له من قبل وكان رقي

العقل مصاحباً لرقي آخر هو الرقي السياسي فلم تكن الأمة اليونانية في حياتها السياسية أثناء القرن الثامن والسابع كما كانت أثناء القرن العاشر والتاسع ، بل بينما كانت الحياة السياسية في العصور الاولى ملكية خالصة تعتمد على سلطان الدين وحده أصبحت في هذا الطور الثاني ارستقراطية ينتقل فيها الحكم من الملك الذي كان مثالا لآلهة من الآلهة الى الاشراف الذين يمثلون الأسر ومنافعها وحاجاتها أي أن الحكم انتقل من الفرد الى الجماعة أي أن الجماعة وأفرادها أخذوا يشعرون بوجودهم وشخصياتهم ويحاولون أن أن يجعلوا هذا الوجود وهذه الشخصيات أموراً معترفاً بها لا تقبل نزاعاً ولا جدالاً ؛ وبعبارة مجملة اخذت شخصية الفرد تظهر قليلا قليلا وسلطان الفرد يتغلب على سلطان الجماعة ولا يمكن أن يكون هذا الا نتيجة لتنبه العقل وعظم حظه من الحياة . ثم تتبع هذه الشعوب اليونانية سواء في بلادها الاولى أو في مستعمراتها الجديدة تجد هذين النوعين من التطور مطردين بنمو العقل فتقوى شخصية الفرد وتشتد مطامعه وتنشأ عن ذلك الثورات السياسية ثم تنمو المنافع الاقتصادية العامة فتظهر الخصومات بين المدن وتنشأ بينها الحروب وينتج عن هذا كله أنواع من النظم الاجتماعية والسياسية والدولية لم تكن مألوفة من قبل . ومن هنا لا يكاد ينتصف القرن السابع حتى نجد بلاد اليونان كلها أو أكثرها في ثورة سياسية اجتماعية متصلة فليس النزاع الآن بين الملوك والارستقراطية كما كان في القرن الماضي وانما هو بين الارستقراطية

وأفراد الشعب وليس لهذا معنى الا أن سلطان الحياة العقلية قد أخذ ينمو ويمتد حتى أخذ الأفراد جميعاً على اختلاف طبقاتهم يشعرون بشخصياتهم وحقهم لا في الوجود وحده بل في الوجود وفي الحكم أيضاً

هـذا التطور الذي لم يعرفه العالم القديم الا في البلاد اليونانية وفي البلاد الرومانية من بعد والذي لم يحدث وحده وانما حدث معه تطور عقلي لم يعرفه العالم القديم من قبل وكان له الأثر كل الأثر في حياة الانسانية من بعد يدعونا الى أن نعرض لمسألة تحتاج الى شيء من التفكير

بين الشرق والغرب

هذه المسألة هي العلاقة بين اليونان والشرق المتحضر ، فانت تعلم أنه بينما كانت الأمة اليونانية خاضعة لسلطان الشعر القصصي الذي يمثلها ساذجة جاهلة قليلة الحظ من النظم السياسية والاجتماعية الراقية كان الشرق قد انتهى الى درجات من الحضارة مختلفة ولكنها راقية لا تقاس اليها حياة اليونان . كان الساميون في بابل واشور وغيرهما قد بسطوا سلطاناً ضخماً وأسسوا حكومات قوية منظمة وانتهوا الى ألوان من الفن والعلم لا تزال تبهرنا الى الآن . ولست في حاجة الى أن احدثك عما كانت مصر قد انتهت اليه من الحضارة . واذن فليس من شك في أن الاتصال قد وجد واشتد بين هذه الأمم الشرقية الراقية وهـذه الأمة اليونانية الساذجة ، وجد هـذا الاتصال واشتد وتأثرت الأمة اليونانية من غير شك

بالحضارات الشرقية المختلفة واخذت عن الساميين في آسيا وعن المصريين في أفريقيا أشياء كثيرة مختلفة . ولم تكن الأمة اليونانية جاحدة ولا منكرة للجميل وانما كانت شديدة الاعتراف بالجميل وربما بالغت فيه مبالغة شديدة أيضاً فنسبت كثيراً من الأشياء الى الشرقيين بل نسبت مدناً مختلفة الى المصريين حيناً والى الفينيقيين حيناً آخر وعدت نفسها دائماً تلميذة للأمة المصرية وغيرها من الأمم الشرقية الآسيوية في الحضارة وألوان الفن . فالى أي حد كان تأثير هذه الأمم الشرقية في الأمة اليونانية ؟ ثم الى أي حد كان تأثير هذه الأمم الشرقية في تكوين الفلسفة اليونانية التي لا تزال تدبر حياة العقل الانساني الى الآن ؟ هذه هي المسألة التي نريد أن نقول فيها كلمة موجزة ونأسف لأن قوماً قد لا يرضون ولكن الحق أحق أن يتبع

نعتقد ونظن أن غيرنا من مؤرخي الفلسفة المحدثين يعتقد أيضاً انه لم يكن للشرق في تكوين الفلسفة اليونانية والعقل اليوناني والسياسة اليونانية تأثير يذكر . انما كان تأثير الشرق في اليونان تأثيراً عملياً مادياً ليس غير . فقد أخذ اليونان عن الشرقيين أشياء كثيرة ولكنها عملية مادية كما قلنا ، أخذوا عنهم مثلا نظام النقد وأخذوا عنهم نظام المقاييس وأخذوا عنهم شيئاً من الموسيقى وتعلموا منهم فنوناً عملية كالحساب والهندسة ولكنهم لم يأخذوا عنهم شيئاً عقلياً يذكر . فلئن كان البابليون قد رصدوا النجوم ووصلوا من ذلك الى نتائج قيمة فهم لم يضعوا علم الفلك وانما هذا العلم

يوناني لم ينشأ عن النتائج البابلية وإنما نشأ عن البحث اليوناني والفلسفة اليونانية . ولئن كان المصريون قد وصلوا الى نتائج قيمة من الهندسة العملية والآلية فليس المصريون هم الذين وضعوا علم الهندسة وانما اليونان هم الذين ابتكروه ابتكاراً . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى نجد عند اليونان أشياء لا نجد شيئاً يشبهها في الشرق القديم ، نجد عندهم هذه المذاهب الفلسفية المختلفة التي حاولت منذ القرن السادس فهم الكون وتفسيره وتعليله ثم نجد عندهم هذه الفلسفة فلسفة ما بعد الطبيعة وما نشأ عنها من أنواع البحث التي نظمت العقل الانساني ولا تزال تنظمه الى الآن ثم نجد عندهم هذه الفلسفة الخلقية التي انشأت علم الأخلاق والتي لم يعرفها العالم القديم من قبل. ونحب أن نلاحظ أن العقل الانساني ظهر في العصر القديم مظهرين مختلفين ؛ أحدهما يوناني خالص هو الذي انتصر وهو الذي يسيطر على الحياة الانسانية الى اليوم والى آخر الدهر ، والآخر شرقي انهزم مرات أمام المظهر اليوناني وهو الآن يلقي السلاح ويسلم المظهر اليوناني تسليماً تاماً ...

بينما نجد العقل اليوناني يسلك في فهم الطبيعة وتفسيرها هذا المسلك الفلسفي الخصب الذي نشأت عنه فلسفة سقراط وافلاطون وارسطاطاليس ثم فلسفة « ديكارت » « وكانت » « وكونت » « وهيجل » « وسبنسر » نجد العقل الشرقي يذهب مذهباً دينياً خالصاً في فهم الطبيعة وتفسيرها. فلم يستطع العقل الشرقي أن يظهر شخصية فلسفية قوية في فهم العالم وتفسيره وانما خضع للكهان في

عصوره الاولى وللديانات السماوية في عصورها الراقية وامتاز بالانبياء كما امتاز العالم اليوناني الغربي بالفلاسفة . هناك شيء آخر نجده عند اليونان ولا نجده في الشرق وهو هذا التطور السياسي الخصب الذي أحدث النظم السياسية المختلفة في المدن اليونانية من ملكية وجمهورية ارستقراطية وديموقراطية معتدلة أو متطرفة والذي لايزال أثره قوياً في أوربا الى اليوم والى آخر الدهر والذي اخذ الشرق يتأثر به في نظمه السياسية أيضاً . بينما كانت المدن اليونانية تخضع لهذا التطور الغريب الذي حقق حرية الافراد والجماعات والذي انتصر حتى أصبح المثل الاعلى للحياة الحديثة في الشرق والغرب كان الشرق خاضعاً لنظام سياسي واحد لم يتغير ولم يتبدل وهو نظام الملكية المطلقة المستبدة الذي تفقد فيه الجماعات والافراد كل حظ من الحرية . فكيف نستطيع أن نفسر هذا الاختلاف بين الشرق والغرب ؟ ولم نفسره ؟ وما حاجتنا الى هذا التفسير ؟ يكفي أن نسجل الحقيقة الواقعة وهي أن الحياة اليونانية التي خضعت للشعر في أول أمرها ثم خضعت بعد ذلك للعقل كانت اخصب حياة عرفها الانسان في العالم القديم

سقراط

بين يدي الآن كتاب ظهر في هذه الأيام موضوعه تاريخ الفكر اليوناني لأستاذ من علماء الفرنسيين هو المسيو « ليون روبان » وليس هذا الكتاب الضخم القيم أول كتاب ظهر في هذا الموضوع ولن يكون آخر كتاب بل ليس هو الكتاب الوحيد الذي ظهر في هذه الأيام من نوعه وانما هناك كتب كثيرة ظهرت وتظهر

وستظهر في هذا الموضوع لأن الاوربيين يتخذون هـذه القاعدة قانوناً لهم وهي ان ليس الى فهم الحياة الحديثة على اختلاف وجوهها من سبيل الا اذا فهمت مصادرها الأولى ومصادرها الأولى هي الحياة اليونانية من جهة والرومانية من جهة أخرى أو قل هي الحياة اليونانية لأن حياة الرومان كانت من اكثر وجوهها متأثرة بالحياة اليونانية . واذ كنا قد أخذنا في هذا العصر الحديث نسلك سبيل الاوربيين لا في حياتنا العقلية وحدها بل في حياتنا العملية على اختلاف فروعها ايضاً فليس لنا بد من أن نسلك سبيل الاوربيين في فهم هذه الحياة التي استعرناها . أقول اننا اخذنا في هذا العصر الحديث نسلك السبيل الاوربية في جميع فروع الحياة ونعدل عن حياتنا القديمة عدولا يوشك أن يكون تاماً ، وأحسب انك لن تطالبني بالدليـل على ذلك فانت في المدرسة ستتعلم العلم الاوربي وأنت اذا قرأت تقرأ العلم الاوربي واذا فكرت فعلى النحو الاوربي وأنت في بيتك وفي صلاتك المختلفة تسلك المسلك الاوربي وأنت في حياتك السياسية وفي نظامك الاداري والاجتماعي تنهج المنهج الاوربي ، وما أحسب اننا نكتفي من هذه الحياة بتقليد القردة وانما اعلم اننا نريد أن نتخذها حياة لنا عن فهم وبصيرة . واذن فلنفهمها قبل كل شيء ولنتبين (اذا كان الامر كذلك) كيف كانت حالة الفكر في تلك العصور اليونانية الخصبة وكيف كانت قيادة الفلسفة اياه ولنبدأ من هؤلاء الفلاسفة الذين أشرفوا

على قيادة الفكر اليوناني ولا يزالون يشرفون على قيادة الفكر الانساني بأسرهم وزعيمهم جميعاً « سقراط »

ولست أستطيع أن احدثك عن سقراط دون أن الفتك الى أنه لم يتولَّ قيادة الفكر اليوناني الا بعد أن ارتقى هذا الفكر وانتهى من الرقي الى حد عجيب وأن الفلسفة سلكت من قبله طرقاً مختلفة شديدة الالتواء وأفلست فيها واحدة بعد أخرى وأن هذه الفلسفة التي أفلست في آخر الامر كانت أيام انتصارها مشرفة على العقل اليوناني تقوده وتدبره وتنتهي به الى الخير ولكن هذا العقل كان شديد التطور سريع الاستحالة فلم يكن بد لتلك المذاهب الفلسفية من أن تنتهي الى ما انتهت اليه من افلاس ولم يكن بد من أن يظهر مذهب فلسفي جديد يلائم هذه الحياة الجديدة التي انتهى اليها العقل اليوناني في آخر القرن الخامس قبل المسيح . تستطيع أن تقرأ في غير هذا الفصل من كتب التاريخ الفلسفي كيف نشأت الفلسفة اليونانية وكيف جاهدت لتنتصر على الشعر والدين وكيف التمست تفسير هذا الكون في الارض مرة وفي السماء مرة أخرى وفي الماء حيناً وفي الجو حيناً آخر ثم كيف عدلت عن المادة الى المعنى وكيف تعمقت في بحثها المعنوي دون أن تنتهي الى شيء قيم وكيف كانت اثناء هذا البحث والاضطراب مصدراً لهذا التطور السياسي الذي أقر النظام الديمقراطي في اثينا وغيرها من المدن اليونانية . أما أنا فلن أحدثك من هذا كله بشيء وانما أحدثك في كلمات موجزة عن حال العقل اليوناني أيام سقراط لتستطيع أن تفهم فلسفة سقراط

وما نشأ عنها من المذاهب المختلفة . أما الحياة العامة الآثينية فكانت متأثرة بشيئين مختلفين احدهما النظام الديمقراطي المتطرف الذي يقوي حرية الفرد الى أقصى حد ممكن ويجعل شخصيته بارزة تستطيع أن تعاند الدولة وتنتصر عليها احياناً . والثاني هذا الاختلاط الشديد بين الشعوب المختلفة المتباينة الذي كان يبعث على الحياة العقلية القوية ويجعلها مضطرمة ابداً والذي كان يبعث على اصطدام المنافع وتنازعها وتعقدها الى حد عظيم . أضف الى هذين السببين ما اشرت اليه من افلاس المذاهب الفلسفية الأولى تلته الى هذه النتيجة وهي ان العقل اليوناني في ذلك العصر كان قد وصل الى حال من الشك لم يعرفها من قبل . شك في الفلسفة التي عجزت عن تفسير الكون وشك في الدين الذي أصبح من السخف بحيث لا يستطيع أن يؤمن به عقل يحترم نفسه ، وشك في الحياة السياسية التي اشتد فيها الاضطراب وعبثت بها الحروب من جهة والثورات من جهة أخرى والاهواء الشخصية من جهة ثالثة ، وشك في النظام الاجتماعي الذي لا قيمة له اذا لم يعتمد على فلسفة قوية أو دين متين أو سياسة ثابتة ، شك في كل شيء وحرص على المنفعة الخاصة التي يمكن أن يؤمن بها الفرد حقاً لانه يمسها ويستمتع بها ويسعى اليها . في هذه الحال نشأت فلسفة « السوفسطائيين » (Sophistes) التي كانت في حقيقة الامر مرآة صادقة للحياة الاجتماعية والتي كانت تنكر كل شيء في نفسه ولا تعترف الا بشيء واحد وهو المنفعة الفردية والتي كان زعماؤها يطوفون الارض كما كان يفعل الشعراء

القدماء يحملون الشك والانكار ويخدمون المنفعة الفردية ويعلمون الفرد كيف يلبس الحق بالباطل وكيف يعبث بعقول القضاء في المحكمة وبعقول الجماعات في المجالس السياسية العليا وكيف يعبث بعقول الافراد ومنافعهم فيما يكون بينه وبينهم من حوار

في هذه الحال السيئة نشأ سقراط . ولم يكن من أسرة ممتازة بل لم يكن من أسرة متوسطة وانما كان الى الطبقة الدنيا أقرب منه الى الطبقات الاخرى . كان أبوه حفاراً وكانت أمه قابلة . ولم يكن حسن الخلق ولا جميل الطلعة وانما كان قبيح المنظر ممقوت الشكل ولكنه كان ذكي القلب نافذ البصيرة شديد الفطنة ولم يكن بدعاً من الآثينيين في عصره وانما سلك السبيل التي كان يسلكها غيره من الناس . يقال أنه تعلم مهنة أبيه ولكنه لم يمض فيها . ومهما يكن من شيء فقد كان كغيره من الشبان الآثينيين يختلف الى المجالس العامة والى الحمام والى محال الالعاب الرياضية وكان يستمع للخطباء السياسيين في جماعة الشعب والقضائيين في المحكمة وكان يجلس الى « السوفسطائيين » فيسمع منهم ويحاورهم وكان يدرس المذاهب الفلسفية المختلفة حتى اذا قضى من هذا كله وطره وبلغ سن الرجولة أحس ان في نفسه شيئاً يخالف ما في انفس الآثينيين وان له ميولا تخالف ميولهم واهواء تخالف اهواءهم : وأخذ يحاور السوفسطائيين من جهة والشبان من جهة أخرى لا يصرفه ذلك عن واجباته الوطنية . فقد كان يشترك في الانتخابات ويجلس في جماعة الشعب بل انتخب في مجلس الشورى ورأس جماعة الشعب وكان يؤدي واجبه

العسكري فقد اشترك في الحرب غير مرة وأظهر فيها بلاء حسناً وشجاعة قيمة وتضحية بالنفس في سبيل الاصدقاء . ولكنه كان يحاور كل من لقيه ضروباً من الحوار غريبة لم يألفها الناس في الفاظ ان لم تكن راقية مهذبة فقد كانت قوية خلابة ساحرة وما هي الا أن كلف به الشبان وكلف بهم فسعوا اليه أو قل سعى اليهم ؛ فلم تكن له مدرسة وانما كان هو مدرسة متنقلة يحاور في الميادين العامة وفي حوانيت الحذائين وغيرهم من الصناع وفي اروقة الحمام وفي الملاعب الرياضية وربما حاور في منازل الموسمات وقد فتن به الشبان فتنة لم يفتنوها بأحد من قبله فالتفوا حوله التفافاً شديداً واستغرق حواره اياهم يومه كله أو اكثره . وكان حسن الدعابة بل لم يكن حواره الا دعابة متصلة وهزلا مستمراً ولكن هذه الدعابة الحلوة وهذا الهزل اللذيذ لم يكونا الا ستاراً لطيفاً شفافاً ينم بما دونه من حق وجد . لم تكن له مدرسة ثابتة ولم يكن له موضوع بعينه يدرسه أو يحاور فيه وانما كان يدرس كل شيء ويحاور في كل شيء ويتخذ كل شيء وسيلة للبحث والجدال وطريقاً الى غاية معينة سنراها بعد حين . كان اذن يخالف غيره من فلاسفة عصره من هذين الوجهين من حيث أنه لم يكن يلتزم مكاناً للدرس ومن حيث أنه لم يكن يلتزم موضوعاً للدرس . وكان يخالفهم من جهة أخرى ؛ فقد كان هؤلاء الفلاسفة من (السوفسطائيين) سواء منهم من طوف في الارض وانتقل من مدينة الى مدينة يسعى الى الطلاب ويلتمسهم ومن أقام في مدينة بعينها يسعى اليها الطلاب ويلتمسونه ؛ كانوا

جميعاً يتخذون الفلسفة والدرس وسيلة الى المجد وكسب المال : وسيلة الى المجد فكانوا ينشئون الفصول والرسائل يتلونها في المحافل والمشاهد العامة ليفتن بهم الجمهور ويعجب بهم الناس كما كانوا يتعرضون للفلاسفة وزعماء العصر يحاورونهم ويجادلونهم ويخلبون الناس بهذه المقدرة التي كانت تتيح لهم أن يلبسوا الحق بالباطل ويسبغوا على الخطأ ثوب الصواب . ووسيلة الى الكسب فكانوا لا يلقون دروسهم مجاناً وانما يتقاضون عليها الاجور الضخمة وكانوا يحاسبون الطالب حساباً دقيقاً على ما القوا اليه من علم

ـ أتريد درساً واحداً أم دروساً عدة ؟ أم أنت تريد أن تتعلم الفلسفة كلها ؟ لكل شيء من ذلك اجرة

أما سقراط فلم يكن يلتمس مجداً ولا كسباً ، ولم يكن يحفل بالمجامع العامة يلقي فيها الخطب أو يقرأ فيها الفصول وانما كان يفر من ذلك فراراً ولا يأتيه الا اذ اضطر اليه اضطراراً في جماعة الشعب أو مجلس الشورى . وكان لا يعد الخطب للناس يلقونها في المحاكم أو الجماعات السياسة وكان لا يتقاضى على علمه أجراً لانه كان يعتقد أنه لا يعلم الناس شيئاً . فليس غريباً أن يفتن به الجمهور من شباب اثينا وليس غريباً أن يتسامع به الناس في « اتيكا » ثم في البلاد اليونانية الاخرى وليس عجيباً أن يفد اليونانيون من أقطار الارض على اثينا ليلقوا سقراط ويتحدثوا اليه . ولكن حادثة حدثت فغيرت من سيرة سقراط ورأيه في نفسه شيئاً كثيراً . ذلك أن أحد المعجبين به وكانوا كثيرين ذهب الى «دلف» (Delphes)

وسأل « ابولون » (Apollon) : أبين فلاسفة اليونان وحكمائهم من يفوق سقراط أو يبلغه فلسفة وحكمة فاجابت الكاهنة أن لا . وبلغ ذلك سقراط فحمله على أن يتبين السبب الذي بعث الاله « ابولون » على أن يعلن أنه أحكم الناس وأحسنهم فلسفة ، ولم يكن سقراط يرى في نفسه هذا الرأي وانما كان يرى أنه أشد الناس جهلا وأقلهم حظاً من علم أو فلسفة وما هي الا أن أخذ في البحث والتحقيق فألمّ بالحكماء والفلاسفة وبالشعراء والكتاب وبالصناع واهل الفن يحادثهم ويسألهم ويعلم علمهم حتى انتهى الى هذه النتيجة وهي أنه أحكم الناس حقاً . ذلك لانه رأى هذه الطبقات كلها شديدة الغرور قوية الايمان بحظها من العلم أو الفلسفة أو الشعر أو الفن ، شديدة الجهل بنفسها . ورأى أنه هو الرجل الوحيد الذي لا يغره شيء ولا يعلم الا شيئاً واحداً هو أنه شديد الجهل بكل شيء . وكان القدماء قد كتبوا على معبد « دلف » هذه الحكمة القديمة « اعرف نفسك بنفسك » فما أسرع ما اتخذها سقراط شعاراً له وقاعدة لحياته وحواره وتعليمه ؛ وما أسرع ما اعتقد أنه قد أصبح شيئاً يشبه الانبياء وان « ابولون » قد كلفه مهمة عظيمة الخطر هي أن يبث الحكمة في الناس ويعلمهم أن يعرفوا أنفسهم بأنفسهم . من ذلك الوقت جدّ سقراط في تأدية رسالته وتحقيق الواجب الذي كلفه اياه « ابولون » فتتبع الشباب الآثيني في كل مكان وأخذ عليه كل سبيل حتى لقد كان يمشي في طريقه فاذا رأى شاباً يمضي لعمل من أعماله أخذ عليه الطريق ومنعه أن يمضي وأخذ يلقي عليه أسئلة

عادية لا قيمة لها فيجيبه الشاب أجوبة تلائم هذه الاسئلة ولكنه يمضي في السؤال ويمضي الشاب في الجواب واذا هما في حوار فلسفي قد أنسى الشاب عمله وجمع حولهما الناس . وقد ظهر تأثر الجماعة الاثينية بسقراط وجزع الطبقات الارستقراطية من سلطانه على الشباب في نحو سنة ٤٢٥ قبل المسيح حين أخذ الشاعر التمثيلي المشهور « ارستفان » (Aristophane) الذي كان لسان الاحزاب الارستقراطية المحافظة يعرض بسقراط في قصصه التمثيلية المضحكة ولا سيما في قصة الطير والضفادع ولا سيما في قصة السحاب التي خصصت كلها لسقراط والهزء به وأصبح سقراط شيئاً بخيف الارستقراطية لانه كان شديد العبث بالعادات والاخلاق الموروثة ولكنه لسوء حظه لم يرض الديمقراطية بل كان بها شديد العبث أيضاً . ألم يكن يتخذ الدين موضوعاً لحواره ؟ ألم يكن يتخذ النظم الديمقراطية موضوعاً لهذا الحوار ، ألم يكن يظهر كلما سنحت له الفرصة سخطه على حكم الشعب واستهزاءه بهذا الحكم . ثم أليس هو الذي عارض أشد المعارضة حين أرادت جماعة الشعب أن تحاكم القواد الاثينيين المنتصرين الذين اتهموا بالتقصير في جمع الغرقى في موقعة « ارجونوس » (Arginus) . أبى سقراط على جماعة الشعب محاكمة هؤلاء القواد وكان من رؤساء الجلسة في ذلك اليوم ؛ ولكن جماعة الشعب حاكمت هؤلاء القواد وقضت عليهم بالموت وانفذت فيهم هذا القضاء وكرهت سقراط ثم لم تلبث أن ندمت

على ما قدمت واحست أنها قد حرمت أثينا ظلماً عشرة من قوادها الماهرين حين كان احتياجها الى الرجال شديداً

كان سقراط قليل الميل الى الديموقراطية كما كان شديد البغض للاستبداد عدوًّا للارستقراطية وقد اغضب هذه الطبقة كما أغضب الشعب ، أغضبها حين أبى على الطغاة الثلاثين ما أرادوه عليه من المعونة وحين عرض نفسه بذلك للخطر . ومن هنا لم ينته القرن الخامس حتى كان سقراط قد الب على نفسه الديمقراطية المنتصرة والارستقراطية المنهزمة كما أنه كان قد الب على نفسه الشعراء والفلاسفة والمعلمين لانه صرف عنهم الشباب من جهة ولانه كان شديد السخر بهم من جهة أخرى . فما هي الا أنه تم انتصار الديمقراطية على الطغاة الثلاثين حتى تقدم اثنان من الآثينيين أحدهما شاعر بقضية الى الشعب يتهمان فيها سقراط تهماً عدة منها أنه افسد الشباب ومنها أنه لا دين له ومنها أنه يعبث بالنظم السياسية القائمة . وحوكم سقراط فلم يكن موقفه من قضاته موقف الرجل الذي يريد أن يدافع عن نفسه حقاً ويثبت براءته حقاً وانما كان موقفه من القضاة موقف الساخر بهم المزدري لهم ومع ذلك فقد صدر الحكم عليه باغلبية قليلة جداً وكانت العادة عند الآثينيين وغيرهم من القدماء أن يصدر في مثل هذه القضايا الجنائية حكمان الاول يثبت ادانة المتهم أو ينفيها ، والثاني يقرر العقوبة التي يستحقها المتهم اذا ثبتت ادانته وكانت العادة اذا ثبتت ادانة المتهم أن يسأل عن العقوبة التي يرى أنه يستحقها وأن يسأل المدعي عن العقوبة التي يرى أن المتهم خليق

بها ثم تفصل المحكمة بين هذين الجوابين فتقر احدى العقوبتين اللتين اقترحهما المتهم والمدعي . فلما صدر الحكم بادانة سقراط سئل عن العقوبة التي يرى أنه يستحقها فاجاب ساخراً مستهزئاً أنه يرى أن تطعمه الدولة مجاناً بقية حياته لأنه أنفق هذه الحياة في تعليم الآثينيين تهذيبهم ، وسئل المدعون فطلبوا الموت ، وكان القضاة قد سخطوا لهذه السخرية القاسية فاقروا في حكمهم ما طلب المدعون وقضي بالموت على سقراط

وليس من شك في أنه لو أحسن الدفاع عن نفسه لبرىء وليس من شك في أنه لو لم يسخر بالقضاة بعد ادانته لما حكم عليه الا بغرامة تختلف قوة أو ضعفاً ولكن موقفه أحنق عليه القضاة ثم انتهت به هذه السخرية الى أن اعتبر مهيناً بالدولة فعوقب معاقبة من تثبت عليه الخيانة العظمى أو الخروج على النظام القائم

أما اذا أردنا أن نتبين نصيب هذا الحكم من العدل أو الجور فنحن مضطرون الى أن نرى فيه رأيين مختلفين . احدهما أن آثينا لم تكن ظالمة حين قضت بالموت على هذا الرجل الذي خرج بفلسفته وتعليمه على النظام القائم واتخذ القوانين سخرية وهزءا وانتهى الى أن أهان الشعب ممثلا في المحكمة . والثاني أن آثينا وان كانت قد عدلت في حكمها بالقياس الى نظمها قوانينها فليس من شك في أنها قد أساءت حين قضت بالموت على رجل لا لشيء الا لأنه خالف الجمهور في الرأي . وبهذا الحكم كانت

الديمقراطية الآثينية عدوة لحرية الرأي ، وحسبك بهذا سبة وعاراً وحسبك به مجداً وفخاراً لسقراط

صدر الحكم على سقراط والآثينيون في حفل من حفلاتهم الدينية قد أرسلوا وفدهم الى « ابولون » في جزيرة « ديلوس » (Dellos) وكان « ابولون » صاحب « ديلوس » هذا الهاً خاصاً «لليونانيين» يخالف من وجوه كثيرة «ابولون» صاحب «دلف» الذي كان الهاً للدوريين خاصة ولليونان جميعاً ، فكانت أثينا تعنى عناية خاصة بإله « ديلوس » وترسل اليه وفداً من الحجيج في كل سنة يقيمون الحفلات حول معبده في الجزيرة التي يقال انها كانت سابحة على وجه الماء حينما هبطت أم ابولون من السماء وكانت حاملا وكانت هاربة من زوج « زوس » (Zeuss) كبير الآلهة . فأوت الى هذه الجزيرة السابحة ولم تكد تأوى اليها حتى استقرت في مكانها وولدت هذه الآلهة «أبولون» و «ارتميس» أخته . وكانت العادة عند الآثينيين ألا ينفذ حكم الموت اثناء هذا العيد فاذا قضي بالموت على متهم اثناء هذا العيد انتظر في السجن حتى يؤوب الحجيج ثم ينفذ فيه الحكم . فاضطر سقراط الى أن ينتظر أياماً في سجنه وأخذ أصحابه وتلاميذه يختلفون اليه في السجن كل يوم يقضون معه بياض النهار في حوار وجدال كأن لم يصدر عليه حكم وكأنه لم يكن ينتظر الموت حتى آب الحجيج وآن تنفيذ الحكم . في هذا اليوم أقبل تلاميذ سقراط على استاذهم كعادتهم ولكنهم كانوا جزعين مضطربين وكان هو كعادته هادئاً مطمئناً مبتسماً

فكان بينه وبينهم حوار معروف هو آية من آيات الفلسفة والبلاغة الانسانية وهو الحوار الذي صوره افلاطون في كتابه « فيدون » (Phédon) والذي يثبت فيه سقراط خلود النفس والذي كان له التأثير العظيم في الحياة الرومانية أيام الامبراطورية حين كان القياصرة يقضون بالموت على زعماء الرومان واشرافهم فاذا أنفذ اليهم أمر قيصر ان يموتوا استعدوا للموت هذا الاستعداد الجميل فعنوا باجسامهم العناية العادية وأخذوا في أمورهم كما كانوا يأخذون من قبل فمنهم من كان يجد ومنهم من كان يلهو حتى اذا فرغوا من ذلك قرأوا «فيدون» ثم قتلوا أنفسهم تنفيذاً لأمر قيصر

ولست أريد أن انتقل من هذا الموضوع دون أن أشير الى هذه القصة التي اتفق عليها المؤرخون من أن بعض تلاميذ سقراط هيأ له الهرب وأعد له وسائله وألح عليه فيه ، ولكن سقراط أبى أن يهرب ولو شاء لنجى ، أبى الهرب اكباراً لقوانين الدولة واحتراماً لأحكامها . الحق انا لانستطيع أن نفهم الصلة بين هذا الموقف الذي وقفه سقراط بعد الحكم والذي يمثله خاضعاً لنظام الدولة محترماً له وبين ذلك الموقف الذي وقفه اثناء المحاكمة والذي يمثله ساخراً من نظام الدولة عابثاً به . وأكبر ظننا أن هذه القصة لا تخلو من مبالغة أو قل أن سقراط لم يأب الهرب الا ازدراء للحياة وشوقاً الى الموت فنحن نراه في حواره ينتظر الموت انتظار مشتاق اليه مؤمن بأنه سيكون سعيداً به . وقد تناول السم وجاد

بنفسه بين تلاميذه في فبراير أو مارس سنة ٣٩٩ قبل المسيح وهو في نحو السبعين من عمره

أوجزت لك حياة سقراط ولكني أشد حرصاً على الامانة التاريخية من أن أخفي عليك شيئاً يضطرب في بعض أذهان العلماء العصريين من أمر سقراط. ذلك أن من العلماء المعاصرين من يشك في وجود سقراط أو ينكره ويريد أن يرى فيه رأياً يشبه رأي النقاد في واضع « الالياذة » و « الاودسا » أي يريد أن يعتقد أن سقراط شخص خرافي اخترعه القدماء ليضيفوا اليه هذه الفلسفة التي تسمى السقراطية والتي نشأت عنها فلسفة أفلاطون وارسطاطاليس وغيرهما من الفلاسفة . ولست أخفي عليك أن هذا الرأي لا يزال شاذاً وأن الكثرة المطلقة من العلماء والمؤرخين لا تكاد تحفل به ، ولكن من يدري ؟ فقد كان رأي الذين أنكروا شخص « هوميروس » شاذاً في عصر من العصور وكانت الكثرة المطلقة من العلماء والمؤرخين لا تحفل به ثم تمت له السيادة الآن . أليس من الممكن أن تتم السيادة في يوم من الأيام لهذا الرأي الذي ينكر وجود سقراط ؟ نعتقد أن هذا لن يكون . ذلك لان سقراط لم يعش في عصور جاهلية وانما عاش في عصر تاريخي معروف لا يخفى فيه على الناس شيء ولا يمكن أن يجري فيه على الناس خداع غليظ كهذا الخداع . ليس عندنا شك في أن سقراط قد وُجد وعلم وأثار العقل الاثيني وأغضب الاثينيين وحوكم وقضي عليه بالموت وانفذ فيه هذا القضاء . ولكن الذين ينكرون شخص سقراط معذورون .

أولا لأن الآثار التاريخية المباشرة التي تثبت وجود سقراط وما اعترض حياته من الخطوب قد فقدت منذ زمان طويل فنحن لا نكاد نحقق تاريخ ميلاده وليست لدينا نقوش معاصرة فيها اسمه أو فيها اشارة الى ما أصابه ولكن هذا كله لا يدل على شيء فقد فقدنا من آثار القدماء معظمها ولم يكد يبقى لنا منها شيء وثانياً لان سقراط لم يكتب شيئاً وانما كان تعليمه حواراً لا يسجل فلم يبق لنا من سقراط كتاب يمثل شخصيته تمثيلا ما وانما نحن مضطرون الى أن نلتمس شخصية سقراط فيما ترك تلاميذه من الكتب ، نلتمسها عند أفلاطون وعند زينوفون (Xénophon) وعند ارسطاطاليس وعند غيرهم من الفلاسفة والكتاب الذين حاوروه أو حاوروا تلاميذه . وهؤلاء الفلاسفة والكتاب لا يتفقون في تصوير سقراط بل لا يكادون يتشابهون في هذا التصوير . أضف الى هذا كله أن آثار هؤلاء الفلاسفة والكتاب قد أصابها شيء كثير من عبث الزمان فهي لا تؤدي الينا شخصية سقراط على وجه مرضي، ثالثاً لان الفلاسفة الذين حاوروا سقراط وأخذوا عنه قد علموا الفلسفة بعده في مدن مختلفة بل في قارات مختلفة وكان من المعقول أن تتشابه فلسفتهم ويتقارب تعليمهم اذ كان كله منتهياً الى مصدر واحد هو سقراط . ولكن هذه الفلسفة مختلفة وهذا التعليم متناقض فاذا نطقت بلفظ الفلسفة السقراطية لم تفهم منها شيئاً متشابهاً وانما فهمت منها أشياء متباينة تبايناً شديداً كما سترى ، رابعاً لان حياة سقراط وموته وما اعترضه من الخطوب كل ذلك قد أحدث في نفوس

الناس أثراً عظيماً وما هي الا أن كثرت الاساطير والاكاذيب حول سقراط وحياته وأخذ الكتاب المتأخرون هذه الاساطير والاكاذيب فخلطوها خلطاً ومزجوها بالصواب مزجاً فاصبح من العسير جداً تمييز الحق في أمر سقراط من الباطل . ولكن كل هذا لا يثبت أن سقراط لم يوجد وانما يثبت شيئاً واحداً لا يختلف فيه اثنان وهو أن شخصية سقراط شيء عسير الاثبات والتمييز . وما أكثر الفلاسفة والابطال الذين بعد بهم العهد فأصبح من العسير اثبات شخصياتهم وتميزها . على أن مثل هذا البحث يخرج بنا عن الخطة التي رسمناها لانفسنا في هذه الفصول فلنتركه ولنمضِ فيما نحن فيه من ايجاز فلسفة سقراط وأثرها في الحياة العامة بعده

الفلسفة السقراطية

قلنا أن سقراط اتخذ لنفسه قاعدة جعلها إماماً له في سيرته وفي تعليمه وهي هذه الحكمة التي كانت مكتوبة على معبد « دلف » (اعرف نفسك بنفسك) وهذه الحكمة نفسها اذا تأملناها أوضحت لنا جملة الفلسفة السقراطية فهذه الفلسفة تنحصر أو تكاد تنحصر في شيئين : الاول ان الانسان قد جهل نفسه في جميع العصور المتقدمة وان جهله نفسه هو الذي حمله على أن يلتمس العلم في الخارج فيبحث عنه مرة في الارض واخرى في السماء وحيناً في الجو وحيناً في الماء وكان الحق عليه أن يبدأ بنفسه فيدرسها ويتبين أمرها حتى اذا فرغ منها استطاع أن ينتقل الى الخارج وليس هو في حاجة الى ذلك لانه لن يفرغ من درس نفسه أبداً ولانه سيجد في نفسه اذا

درسها كل شيء . الثاني أن الفلسفة يجب أن تقوم منذ اليوم على معرفة النفس والعلم بها أي أن الفلسفة يجب أن تكون انسانية أي أن الفلسفة يجب أن تقوم قبل كل شيء على الاخلاق

فأنت ترى أن هذه القاعدة السقراطية قد حملته قبل كل شيء على أن يعلن جهله لانه لا يستطيع أن يعلم شيئاً قبل أن يعلم نفسه واذ كان يجهل نفسه فهو يجهل كل شيء . ثم حملته بعد ذلك على أن يتبين نفسه فيبحث عن جوهرها وخصالها وعما يلائمها وما يخالفها وبهذا البحث وضع سقراط أساس علم النفس من جهة وأساس علم الاخلاق من جهة اخرى . أما علم النفس فلم يتعمق فيه سقراط لأن سقراط لم يكن نظرياً ولا مفتوناً بالبحث الخالص الذي ليس بينه وبين الحياة العملية صلة وانما كان يشبه السوفسطائية شبهاً قوياً ويخالفهم مخالفة قوية . كان يشبههم من حيث أنه كان يمقت البحث النظري الخالص وكان شديد الميل الى البحث الذي يمس الحياة العملية ويهدي الى سبل الخير فيها . من هذه الجهة كان ينكر المذاهب الفلسفية القديمة كما كان ينكرها السوفسطائيون وكان يعبث بالعادات والنظم الموروثة كما كان يعبث بها السفسطائيون ولكنه كان يخالف السوفسطائيين خلافاً شديداً فقد كان هؤلاء يعرضون عن النظر الخالص الى المنفعة العملية الخالصة وكانوا يبتغون المنفعة في أغلظ وجوهها وأحطها يبتغون المجد والصوت والمال ولذات الحياة ويسلكون الى هذا كله أيسر السبل وأسهلها لا يعوقهم عنه عائق ولا يمنعهم منه مانع . أما سقراط فكان يعرض

عن النظر الخالص لا الى هذه المنافع المبتذلة بل الى المنفعة المحققة . الى منفعة النفس من حيث هي فلم يكن يحفل بالمجد ولا بالثروة ولا بالشهرة وانما كان يبتغي السعادة وقد بحث عنها كثيراً واهتدى اليها آخر الأمر فعرف أن السعادة انما هي الخير أي أن يكون الانسان خيّراً عدلا مؤثراً للحق من حيث هو مطمئناً الى الحق في نفسه . فبينما كان السوفسطائيـة يعلمون الناس أن يكونوا نفعيين ماديين كان سقراط يعلم الناس أن يكونوا نفعيين ولكن على الوجه الروحي الذي يؤثر الباقية على الفانية ويستطيع أن يميز الجوهر من العرض وأن يزدري زخرف الحياة في سبيل السعادة الحقيقية . وبينما كان السوفسطائية ينكرون كل شيء ويجحدون كل حقيقة فيهدمون بذلك كل علم وكل فلسفة كان سقراط يثبت الحقائق ويعلن أن هذا العالم ليس لغواً ولا عبثاً ولا باطلاً ويسلك في اثبات هذا كله سبيلاً تقرب كل القرب من السبيل التي سلكها «ديكارت» (Descartes) بعـده بعشرين قرناً وهي أنه يثبت وجود نفسه أولا فاذا ثبت له وجود نفسه فقد ثبت أن في العالم حقائق ثابتة وان فلسفة السوفسطائية كلها تقوم على شيء من العبث والمغالطة . ذلك أنك مهما تنكر فلن تستطيع أن تنكر نفسك ولن تستطيع أن تنكر انك تفكر وتحس وتشعر واذن فنفسك وما يصدر عنها من تفكير وحس وشعور كل ذلك حقائق ثابتة لا تحتمل شكا ولا جدالا . ومن هنا قامت الفلسفة السقراطية أولا على محاربة السوفسطائية واثبات أن هناك حقائق موجودة ، ثانياً على أن هـذه الحقائق انما تعلم اذا علمت النفس

الانسانية التي هي السبيل الحقيقية الى ادراكها ، ثالثاً على أن العلم بهذه النفس ليس معناه الا العلم بجوهرها وما يلائمها وما يخالفها ، رابعاً على أن العلم بهذا كله ليس الغرض منه أو لا ينبغي أن يكون الغرض منه الا السعادة التي هي تحصيل ما يلائم النفس وتجنب ما يخالفها ، خامساً ان الحياة كلها انما تدور حول محور واحد عنه صدرت واليه تنتهي وهو الخير . هذه هي خلاصة الفلسفة التي يمكن أن تضاف الى سقراط . وهي شيء من اليسير أن يوجز في جمل قصار ولكن من العسير جداً أن يحصى تأثيره في الحياة الانسانية والعقل الانساني

على أن من التقصير أن نزعم أن فلسفة سقراط قد انتهت عند هـذا الحد بل من الحق أن نقول إن هناك وجهاً آخر من وجوه الفلسفة السقراطية يحسن ألا ننساه ولا نهمله وهو منهجه في البحث وطريقته في التفكير . فلم يكن سقراط كغيره من الفلاسـفة الذين تقدموه ولا كغيره من الفلاسفة الذين جاؤا بعده بزمن قصير يواجـه المباحث الفلسفية مباشرة ويهجم عليها هجوماً عنيفاً حتى يخلص منها إلى نتائجها وإنما كان يدور حول المباحث الفلسفية في رفق ولطف وما زال يدور حولها حتى يجـد مسلكا ضيقاً يسلـكه في رفق ولطف حتى ينتهي إلى النتيجـة التي كان يبتغيها . هـذه الطريقة الفلسفية هي طريقـة الحوار . لم يكن سقراط يضع أمامه مسألة بعينها ثم يأخذ في التحليل والنقـد والتعميم حتى ينتهي إلى ما يريد وإنما كان يتحدث فيسأل ويناقش جواب المسئول ثم يسأل ثم يتعرض للسؤال ثم يجيب ثم يورط محاوره في الخطأ أو يتورط

هو في الخطأ وما يزال في حوار وفي أخذ ورد حتى يستخلص النتيجة كأنها إحدى القضايا الاولية التي لا تحتمل الشك ولا الجدال . ومصدر هذه الطريقة أن سقراط كان يعتقد أن النفس بطبيعتها قادرة على العلم بالاشياء وعلى استكشاف الحقائق ولكن ظروف الحياة العملية وأعراضها وما ورث الناس من عادات وأخلاق ومن أساطير وسخافات كل ذلك قد تراكم على هذه النفس الصافية كما يتراكم الصدأ على المرآة ، فعمل الفيلسوف ليس هو تعليم الانسان ما لم يعلم وإنما هو اعداد الانسان لاستكشاف الحقائق أو قل ان عمل الفيلسوف إنما هو ازالة هذا الصدأ عن المرآة حتى اذا أتم صقلها وتصفية جوهرها تجلت فيها الحقائق واضحة بينة ؛ ومن هنا كان سقراط يعلن أنه لا يعلم الناس شيئاً لانه لا يعلم شيئاً وانما يبحث معهم عن الحق فيجده حيناً ويخطئه حيناً ومن هنا سميت طريقة سقراط طريقة « التوليد » لانه كان يعتقد أن النفس مشتملة على الحقائق كما تشتمل الام على الجنين وان عمل الفيلسوف هو استخراج هذه الحقائق من النفس كما أن عمل القابلة هو استخراج الجنين من الام . وسواء أكانت هذه التسمية صحيحة أم لم تكن ، وسواء أكان بينها وبين صناعة أم سقراط صلة أم لم يكن فليس من شك في أن هذه التسمية تصف طريقة سقراط الفلسفية في البحث وصفاً دقيقاً

أعتقد أني قد أجملت لك ما يمكن اجماله من فلسفة سقراط وما هو بمعزل عن النزاع والجدال فهناك مسائل كثيرة يختلف العلماء في صحة اضافتها إلى سقراط . ولم يبق عليّ الآن إلا أن أجمل لك

مقدار التأثير الذي أحدثه سقراط في العصر الذي جاء بعده مباشرة

قلت ان الشباب الآثيني كان شديد الالتفاف حول سقراط وان الناس تسامعوا به في جميع البلاد اليونانية فقبلوا اليه واشتركوا في حواره . فلما قضي عليه بالموت وانفذ فيه هذا القضاء ظهر في أثينا روح رجعي معادٍ للفلسفة والفلاسفة ميال إلى المحافظة في الرأي فتفرق تلاميذ سقراط الاصفياء سواء منهم الآثينيون وغير الآثينيين فمنهم من عاد إلى وطنه واخذ يعلم الفلسفة فيه ومنهم من هاجر إلى أرض أخرى وأنشأ فيها مدرسة توارثها خلفاؤه من بعده ومنهم من ساح في الارض ومنهم من استخفى في اثينا وترك الفلسفة إلى حين حتى إذا هدأت العاصفة استأنف بحثه الفلسفي وأخذ يعلم الناس . كل هؤلاء التلاميذ نشروا في أطراف الارض اليونانية فلسفة سقراط وفلسفتهم الخاصة وما هي إلا اعوام بعد موت سقراط حتى كان تلاميذه قد انشأوا المدارس المختلفة في أطراف من بلاد اليونان الحقيقية وفي بعض المدن الايطالية والاسيوية بل في أفريقيا وأخذت هذه المدارس بحظوظها المختلفة من الحياة ، فمنها ما بقي وحفظت آثاره ومنها ما ذهب به عبث الايام . ولست أذكر من هذه المدارس إلا ثلاثاً كان لها أثر عظيم جداً في حياة العالم القديم وكان لبعضها أثر لا يزال قوياً في حياة العالم الحديث. الاولى مدرسة « الكلبيين » التي أنشأها رجل من تلاميذ سقراط يسمى « أنتستين » (Antistène) في اثينا والتي اتخذت هذا الاسم من المكان الذي انشئت فيه والتي كانت تقوم فلسفتها على قاعدة

سقراط التي قدمناها وهي معرفة النفس بالنفس ولكنها كانت تطبق هذه القاعدة تطبيقاً انتهى بها إلى الزهد وإلى المبالغة فيه لانها حاولت أن تعرف النفس فعرفتها واستغنت بها عن كل شيء وحملتها هذه المعرفة على أن تزدري الحياة والاحياء وما يستمتعون به من لذة وما يتهالكون عليه من زينة . ولعلك تعرف كثيراً من أخبار « ديوجين »(Diogène) الذي كان يبحث عن الانسان فلا يجده لان الانسان عنده هو الذي يعرف نفسه ؛ وأي الناس يعرف نفسه ؟ والذي يقال أنه كان يأوي إلى دن يتخذه له بيتاً وكان لا يكره أن يستظل السماء ويتخذ الارض له وطاء ويشرب الماء بيده يستغني بها عن الاقداح والذي يقال أن الاسكندر زاره وسأله ماذا يريد فاجابه أريد ألا تحجب عني الشمس فقال الاسكندر لو لم أكن الاسكندر لوددت أن أكون ديوجين . كان تأثير هذه المدرسة شديداً جداً في العصور الاولى فقد انبعث تلاميذها في البلاد اليونانية في أزياء الفقراء والمعوزين لا يلتمسون من الناس شيئاً ولكنهم يدعونهم إلى الزهد والقناعة والانصراف عن اللذات ولعلك تذكر ما كان لمثل هذه النظريات من الاثر في حياة العالم القديم ولا سيما أيام الامبراطورية الرومانية وقبيل انتشار الديانة المسيحية

المدرسة الثانية مدرسة « تورينا » أو مدرسة « برقه » (Cyrène) وهي مدرسة مناقضة من كل وجه للمدرسة التي قدمت لك ذكرها انشأها تلميذ من تلاميذ سقراط يقال له ارستيب (Aristippe)

وتوارثها خلفاؤه من بعده الى أيام المقدونيين في مصر وكانت تقوم أيضاً على قاعدة سقراط « اعرف نفسك بنفسك » ولكنها سلكت سبيلا غير سبيل «الكلبيين» عرفت النفس فوجدت أن الخير انما هو في أن تزدري النفس الحياة والاحياء ازدراء لا يقوم على الزهد والحرمان وانما يقوم على اللذة والاستمتاع بالخير ما وجدت الى هذا الاستمتاع سبيلا. فلِمَ الحرمان ؟ ولِمَ الزهد ؟ ولم النفاق ؟ ألست تشعر بان شيئاً يلذك وشيئاً يؤذيك فالخير هو أن تؤثر ما يلذك على ما يؤذيك ولكن لا على أن تجعل نفسك عبداً للذة بل على أن تجعل اللذة أمة لنفسك تأخذ منها ما استطعت دون أن تأسف عليها اذا حيل بينك وبينها ودون أن تضحي في سبيلها بانسانيتك . ولست في حاجة الى أن أذكرك بما كان لهذه المدرسة من التأثير في الحياة القديمة فانت تعلم أن مذهبين خلقيين كانا يتنازعان حياة القدماء احدهما مذهب الزهد الذي أعلنه الكلبيون بعد سقراط وبالغ فيه الرواقيون بعد ارسطاطاليس ، والثاني مذهب اللذة الذي أعلنه « ارستيب » بعد سقراط وبالغ فيه « ابيوقور » (Epicure) بعد ارسطاطاليس

أما المدرسة الثالثة فهي أبقى المدارس التي نشأت عن فلسفة سقراط وأبعدها أثراً في الحياة الانسانية وأعظمها حظاً من الخلود ، أثرت في العالم القديم وأثرت في القرون الوسطى وأثرت في العالم الحديث وما زال لها انصارها وتلاميذها الى اليوم والى مابعد اليوم

ولـكني لا احدثك عنها في هذا الفصل فهي تحتاج الى فصل خاص لانها انشأت لنا رجلين من قادة الفـكر الانساني العام احدهما « افلاطون » والثاني « ارسطاطاليس »

obeikandl.com